شهادةُ التلميذِ في أستاذِهِ

أ.د. محمد عصفور– جامعة فيلادلفيا/ الأردن.

عرفتُ الكثير عن جبرا قبل أن أتعرّف عليه شخصيّاً. إذ كان قد فرض نفسه على الساحة الثقافية في العراق وخارج العراق بكتاباته المتنوعة وبترجماته ومساهماته في الفن في العراق مع جواد سليم ورفاقه. غير أن المعرفة الحقيقية به أتت في سنتي الأخيرة في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة بغداد. فقد كان من حسن حظّي أن القسم احتاج إلى مدرِّسٍ لمادّة الشعر الإنكليزي من خارج القسم، فكُلِّف بتدريسها، فكانت من أمتع الموادّ التي درستُها في سنواتي الأربع في القسم. ذلك أن جبرا كان هو نفسه شاعراً باللغتين العربية والإنكليزية، وكانت لغته الإنكليزية المحكية أقرب شيء سمعته من عربي إلى ما يسمّى Native English. وكنت أنا قد كتبتُ شعراً بالعربية، فطمعت بتشجيعه، وأعطيته مجموعتي المخطوطة ليبدي فيها رأيه.

من هنا بدأ الكَرَم الذي لا مثيل له، فقد أخذ ينشر لي بعض قصائدي ويكلِّفني بعد التخرُّج بترجمة بعض الموادّ لمجلة العاملون في النفط التي كانت تصدرها وزارة النفط ويشرف عليها هو. كذلك قدّمني لصديقه المرحوم توفيق صايغ الذي كان يصدر مجلَّة حوار في بيروت، وكلَّفني بترجمة قصة "زورق النجاة" لستيفن كرين لكتاب ثلاثة قرون من الأدب، وهو مختارات من الأدب الأمريكي أشرف هو على ترجمته.

غير أن المرحلة المهمّة في هذه العلاقة المتميّزة بين الأستاذ وتلميذه جاءت بعدما وافق على أن أترجم روايته *Hunters in a Narrow Street* التي كانت دار هاينَمان البريطانية قد نشرتها له في سنة 1960، فقد كانت تلك الدار تنشر كتباً لكتّاب يكتبون باللغة الإنكليزية من آسيا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/879

وأفريقيا لكي تُدرَس في الجامعات الغربية لما تعكسه من ثقافات بلادها وطرق تفكير أبنائها، وهي أمور تجعل من كتابات الأمم الآسيوية والأفريقية أشبه بالوثائق الأنثروبولوجية، إضافة إلى ما فيها من موضوعات سياسية يحبُّ الغرب أن يفهمها عن هذه الشعوب "المتخلِّفة". وكان السبب الذي دعاني إلى التفكير في ترجمة رواية جبرا أن الأدب العربي أَوْلى بها، وأن بقاءها في اللغة الإنكليزية سيبقيها وثيقةً أنثروبولوجية سياسية، ولن تدخل في سياق الأدب الإنكليزي كما دخلت روايات جوزف كونْراد مثلاً.

أنهيت الترجمة بينما كنت أدرس في الولايات المتّحدة، وكان من حسن حظّي أن دار الآداب اللبنانية وافقت على نشرها، وحازت الترجمة على رضا مؤلِّفها ورضا قرّائها, وصارت جزءاً من الأدب العربي رغم أنها كُتِبت بلغةٍ أخرى أصلاً.

امتدّت الصداقة بيننا حتى وفاة جبرا في سنة 1994، وكان العراق بين تاريخ نشر الصيغة العربية من "صيّادون في شارعٍ ضيق" في سنة 1974 وتاريخ وفاته يمرُّ في فترة صعبة، وكان جبرا يزور الأردن (حيث حطَّت بي الرحال للعمل في الجامعة الأردنية) كلّما أتيحت له الفرصة، وكان يزورني في البيت، ويُتْحفني بكتبه وأحاديثه. وعندما قرَّرتُ أن أكتب عنه كتابي "نرجس والمرايا" استعنتُ به لتزويدي ببعض المعلومات البيليوغرافية، فلم يبخل عليّ بشيء. والقائمة البيليوغرافية في آخر الكتاب مدينةٌ له بمعلوماتٍ كثيرة ما كنت لأحصل عليها من غيره.

على أن الكتاب أوقعني في أزمةٍ مع نفسي. فلم يكن بوسعي، مع حبي الشديد لأستاذي وتقديري العظيم لما أنتج من كتابات أدبية جعلته من ألمع الكتاب العرب بعامّة، والفلسطينيين بخاصَّة، أن أتخلّى عن موضوعية الباحث الأكاديمي والناقد الذي لا يقيس الروايات والأشعار بمقياس الصداقة والمحبة الشخصية. كنت أحسّ أن رواياته الأخيرة لم تكن بالمستوى الذي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/879

أريده لها: هل أغضُّ الطرف عن النواقص والعيوب عند الروائي لأن الأستاذ والصديق كان معي بالغ الكرم؟ هل أرميه بعد أن علّمني الرماية منذ أن أخذ بيدي في العام الدراسي 1964/1963 ولسنوات طويلة بعدها؟ كنت قد قرأت مسرحية موليير *The Misanthrope* حيث يقرِّر ألْسِسْت أن يقول لصديقه أورونْت رأيه الصريح بقصيدة أطلعه عليها ليبدي رأيه فيها، فما كان من ألْسِسْت إلا أن أبدى رأيه بصراحته المعهودة فيها فخسر بذلك صداقة صديقه. هل كنت سأخسر صداقة جبرا لو اطّلع على بعض تعليقاتي السلبية على رواياته التي أتت بعد روايته الكبرى "البحث عن وليد مسعود"؟ لا أستطيع الجزم في هذه المسألة، فما من كاتب يحبُّ أن يُنْتَقَد بعد الجهود التي بذلها في كتابة قصيدة أو رواية. لكنَّ ما يشفع لي في انتقاد بعض رواياته أنني رأيتُ في الكتاب أن جبرا الشاعر أفضلُ من جبرا الروائي، وأن شعره يستحقُّ من العناية النقدية أكثر مما لقيه لحدِّ الآن، وأنا في هذا صادق مع نفسي ومعه، وسيجد قارئ "نرجس والمرايا" ما يثبت ذلك.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/879